



خطبة صلاة الجمعة 23/8/2013 للشيخ الطبيب محمد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكى

(لماذا كثرت الخلافات الأسرية في الأزمنة؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبي اجتبا، هدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

أمّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 2-3].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].

وقال جلّ شأنه: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: 5].

وقال عزّ وجلّ: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُئْتِنِ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا

إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7].

أتدرون أين ذُكرت هذه الآيات في القرآن؟... إنّها في سورة الطلاق.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرَشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَذْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا

وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، فَيُذْنِبُهُ مِنْهُ وَيَقُولُ نَعَمْ أَنْتَ» [رواه مسلم].

قال المناوي في فيض القدير: «فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا» أي، وسوست بنحو قتل، أو سرقة، أو شرب.

عنوان الخطبة:

(لماذا كثرت الخلافات الأسرية في الأزمنة؟)

أيُّها الإخوة:

مضت الأيام أَنَّ الألم يجمع الملاء، وَأَنَّ الشِدَّةَ تلُمُّ العشيرة، وَرُبَّ مصيبةٍ جمعت قبيلة.
ولله در عمر أبو ريشة حين قال:

لَمَّتْ الألامُ مِنَّا شَمْلَنَا وَنَمَتْ ما بَيْنَنَا مِنْ نَسَبِ

فإذا مصرُّ أغاني جَلَّقِ وإذا بغدادُ نجوى يثرب

بورك الخطب فكم لفَّ على سهمه أشتات شعبٍ مُعْصَبِ

غير أنني لحظت في أيَّام الأزمة التي تمر بها الشَّام -والتي نسأل الله تعالى تعجيل كشفها بلطفه- زيادةً في حالات الخلاف الأسري، فتفكَّرت في سبب الأمر وعلاجه، فوجدت ثلاثة أسبابٍ، وثلاثة مساعداتٍ تعين في العلاج، ولعلَّكم تزيدون على ما سأذكر أو تُنقصون.
أمَّا الأسباب: فالشِدَّةُ النَّفسية، وقَلَّةُ ذات اليد، وسوء الخُلُق.

وأمَّا المساعدات في العلاج: فالإكثار من ذِكْرِ الله، والاجتهاد في التَّوفير وحُسن التَّدبير، وحمل النَّفس على الخُلُق الحسن.

واسمِّحوا لي أن أبدأ الحديث بهاتين الحادِثتين:

- متزوجٌ ولديَّ طفلان، أساس علاقتنا أنا وزوجتي الاحترام والمحبة المتبادلة، بسبب الظروف السَّائدة اضطرت إلى ترك منزلي والسَّكن في منزل العائلة مع والدتي المسِنَّة، تضايقت أُمِّي من سَكْنِ أُسرَتِي معها إذ تغيَّر برنامجها، ولذلك حَدَثَ بَيْنَنَا سوء تفاهمٍ تطوَّر إلى شجارٍ، ومنذ فترةٍ عدت للعمل فانتقل الشَّجار بينها وبين زوجتي وأطفالي.

لم تعد زوجتي تُطيق التَّحمل ومثلها أمي، منذ عدَّة أيَّام أصابت زوجتي حالةٌ مرضيَّةٌ لم نعلم سببها، فأرشدوني؟!.

● زوجي فيه عسارة، ومنذ أشهرٍ سافرنا إلى لبنان مع أهله -أمّه وأبيه وأخته وأخيه غير المتزوج- لنسكن معاً تخفيفاً للتَّفقات.

الأمر هنا ازداد سوءاً: عسارته، ومعاملة أهله السيئة، ووضع الحجاب طيلة الوقت -لأنَّ أخاه لا يغادر المنزل-، والتَّعب من العمل المنزلي لأنني أنظفٍ واطبخ و...، وأخته في حلٍّ من هذا العناء.

قدِمَ أهلي لزيارتنا، وعدت معهم للشَّام وحيدةً من دون أولادي، لأنَّ زوجي لم يقبل أبداً أن آخذ الأولاد معي.

والآن أصبحت في موقفٍ صعبٍ جداً، إذ لا أستطيع العودة إلى العناء والتَّعب، ومشتاقَةٌ جداً لأولادي، وزوجي لن يقبل أن نسكن في بيتٍ مستقلٍّ، فماذا أفعل؟

لماذا كثرت الخلافات الأسرية في الأزمة؟

ثلاثة أسبابٍ، وثلاثة معيناتٍ على العلاج.

السَّبب الأول: الضِّيق والشِّدة النفسية:

فالأخبار التي نسمع، والدَّمار الذي نرى، والأرواح التي تُرْهق، وقصص الألم التي تحدث كلَّ يومٍ، لا ريب أنَّها تُوقع في النَّفس ضيقاً وفي الصِّدر حرجاً.

والمرء ضعيفٌ بنفسه قويٌّ برَّبِّه، إن حمل الضِّيق ولم يضعه في ساحة مولاه ناء به وأثقله، وربَّما عكس المرء هذا الضِّيق غضباً يثور به على أهله وأسرته.

والمساعد في العلاج الإكثار من ذِكْرِ الله، قال تعالى في سورة الرَّعد: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ

بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28]، قال القرطبي المفسر: (تَسْكُن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن).

وعقَّب الألوسي: (إنَّ سبب الطُّمأنينة نورٌ يُفيضه الله تعالى على قلب المؤمنين بسبب ذِكْرِهِ، فيذهب ما فيها من القلق والوحشة).

وَأَقْسِمُ، إِنَّ قَلْبَكَ الَّذِي بَيْنَ جَنبَيْكَ لَا يَطْمَئِنُّ، وَلَا يَسْكُنُ، وَلَا يَهْدَأُ، وَلَا يَرْتَاحُ، إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ

﴿إِنَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

روى الإمام مسلم في صحيحه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ؛ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».

السَّبَبُ الثَّانِي: قَلَّةُ ذَاتِ الْيَدِ وصعوبة تأمين الحاجات الأساسية أو العجز عن تأمينها:

هذه القلة والعجز جعلوا الزوج في ضجرٍ واضطرابٍ، والزوجة في تَبَرُّمٍ وإزعاجٍ.

والمساعد في العلاج التَّوْفِيرُ وحُسن التَّدْبِيرِ، وكنت قد قرأت أَنَّ السَّيِّدَةَ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ -وهي الثَّرِيَّةُ بِنْتُ الثَّرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، لَمَّا تَزَوَّجَهَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَلَمْ يَكُنْ بِشَرَاءٍ وَالِدُهَا وَلَا بِنَصْفِهِ، لَمْ تَحْمِلْهَا الْقَلَّةُ عَلَى التَّبَرُّمِ وَالْإِزْعَاجِ، وَإِنْ كَانَتْ كَكُلِّ النَّاسِ تَحِبُّ رَعْدَ الْعَيْشِ وَتَأْلَفُهُ، وَهِيَ تَرْوِي لَنَا حَالَهَا، قَالَتْ: (تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ، وَمَا لَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ، وَلَا شَيْءٍ غَيْرِ نَاضِحٍ وَغَيْرِ فَرَسِهِ، فَكُنْتُ أَغْلِفُ فَرَسَهُ، وَأَسْتَقِي الْمَاءَ، وَأَحْرِزُ غَرْبَهُ، وَأَعْجِنُ، وَلَمْ أَكُنْ أَحْسَنَ أَحْبِزٍ، وَكَانَ يَحْبِزُ جَارَاتِي مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكُنْتُ نِسْوَةَ صَدِيقٍ، وَكُنْتُ أَثْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَأْسِي، وَهِيَ مِنِّي عَلَى ثَلَاثِي فَرَسَخٍ، فَجِئْتُ يَوْمًا وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي، فَلَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ تَقَرُّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَدَعَانِي ثُمَّ قَالَ: «إِخْ إِخْ» لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أُسِيرَ مَعَ الرِّجَالِ، وَذَكَرْتُ الزُّبَيْرَ وَغَيْرَتَهُ وَكَانَ أَغْيَرَ النَّاسِ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنِّي قَدْ اسْتَحْيَيْتُ فَمَضَى، فَجِئْتُ الزُّبَيْرَ فَقُلْتُ: لَقِينِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى رَأْسِي النَّوَى، وَمَعَهُ تَقَرُّ مِنْ أَصْحَابِهِ فَأَنَاحَ لِأَرْكَبَ فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَعَرَفْتُ غَيْرَتَكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَحَمْلُكَ النَّوَى كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ رُكُوبِكَ مَعَهُ، قَالَتْ:

حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَادِمٍ تَكْفِينِي سِيَّاسَةَ الْفَرَسِ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِي [رواه البخاري ومسلم].

هذا ما قرأته في الكتب، وقد رأيت عن كتب سيدات فاضلات بنات عزٍّ وجاهٍ، عضَّ ناب الزَّمان أزواجهن، فصبرنَ وعَفَقْنَ ووقفنَ مع أزواجهنَّ في الضَّراءِ، حتَّى أخرجوهنَّ بفضل الله إلى عزٍّ وجاهٍ جديدين، فواحدةٌ عملت في الخياطة في منزلها، والثَّانية مدرِّسةٌ لأبناء الجوار بالأجرة، والثَّالثة صانعةٌ للأطعمة والغذائيات للبيع، فضلاً عن توفيرهنَّ الكبير وتدبيرهنَّ اللافت لمصروف بيوتهنَّ.

وقرأت في أحد الكتب أنه في عام 1929م انهار سوق الأسهم الماليّة في أمريكا، واضطرب وضع المصارف، وفقد كثير من الناس أعمالهم، وانخفضت القوة الشرائية للعملة، الأمر الذي نتج عنه مجموعة أمور، المحمودة منها نشوء عادات التوفير والاقتصاد. وأذكر هنا أنني ومجموعة من الإخوة أعددت دورة في الاقتصاد المنزلي -أرى هذا الوقت مناسباً جداً لتعليمها الناس- تناولت فيها عشر آليات للتوفير: (التقليل، والإلغاء، والاستبدال، والتدوير، وإعادة الاستعمال، وإعادة البيع، والاستعمال الأمثل، والشراء الأمثل، والإدخار، والصدقة). ومثّلت لهذه الآليات العشر بأمثلة كانت أمهاتنا تعمل بها في العسر واليسر، الأمر الذي أورث آباءنا نجاحاً مالياً وسعةً.

ولئن كانت الأزمة أرخت بظلالها على البيوت بقلّة ذات اليد عند الرجال، فإنّ العلاج يكون ببحث الزوج عن مصدر دخلٍ إضافيٍّ وعدم ركونه إلى الكسل، وبحث الزوجة عن طريقٍ مبتكرةٍ في التوفير وحسن التدبير، وعدم ركونها إلى ما اعتادت عليه في زمن البجوحة. السبب الثالث الأخير: سوء الخلق من بعض الأزواج أو بعض الزوجات: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ لَيَسْعَهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ» [مسند البزار].

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليُسعف القول إن لم يُسعف الحال

فحُسن الخلق يشرح الصدور، ويُسّر ما عسر من الأمور، ويُذلل الصّعب، ويُعين على نوائب الدّهر، فكم من زوجٍ أساء بسوء خُلُقهِ أكثر ممّا أساءت الأزمة، وكم من زوجةٍ أضرت بسوء خصالها أكثر من أضرار الأزمة. ولعلّ من أهم ما زاد الخلافات الأسرية في الأزمة في مسألة سوء الخلق عدم التّأدب بآداب الشّرع في مسائل اختلاط الرجال بالنّساء، فالأسر التي خرجت من بيوتها واضطرت إلى السّكن عند أرحامها أو معهم، وجب عليها التزام آداب الشّرع في علاقة الرجال بالنّساء، من حرمة الخلوة، وإطلاق النّظر، وكشف العورات، فكم من قصّة مؤلمة نمت إلى الأسماع من جراء الاختلاط غير المنضبط. والمساعد في العلاج حمل النّفس على التّأدب بآداب الشّرع والتّخلق بالخلق الحسن.

أيها الإخوة:

هذه خطبة: لماذا كثرت الخلافات الأسرية في الأزمة؟

وهذا الجواب في ثلاثة أسباب، وثلاثة مساعداتٍ في العلاج.

السبب الأول: الضيق والشدة النفسية، والمساعد في العلاج الإكثار من ذكر الله.

السبب الثاني: قلة ذات اليد، والمساعد في العلاج التوفير وحسن التدبير.

والسبب الثالث الأخير: سوء الخلق، والمساعد في العلاج حمل النفس على التأدب بآداب الشرع

والتخلق بالخلق الحسن.

والحمد لله رب العالمين